

قبة حرم الإمام الرضا(ع)*

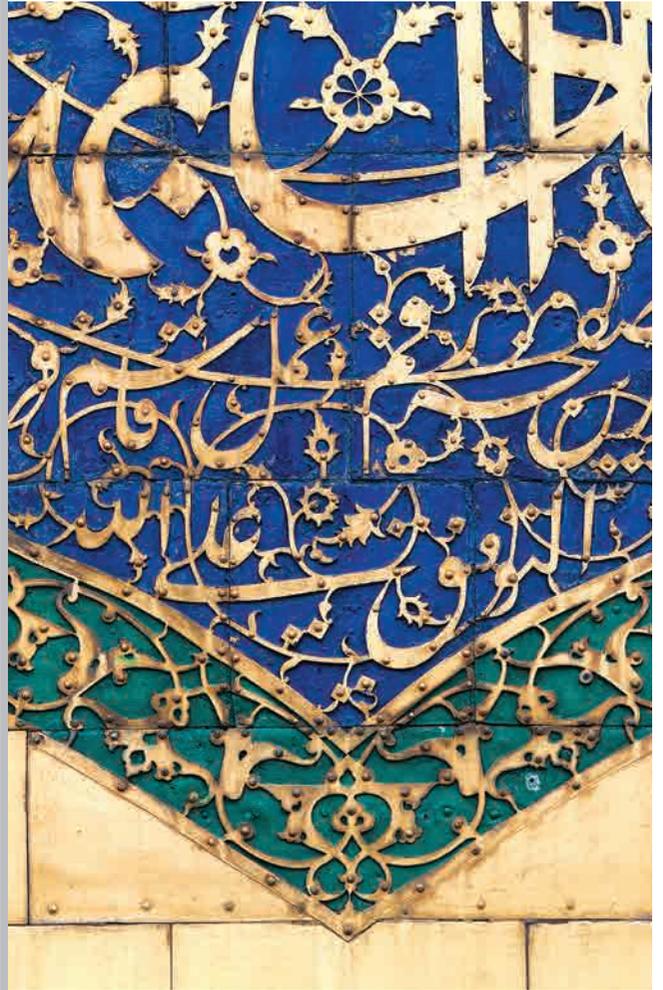
بقلم: رجب علي لباف خانيكي**

خلاصة

ضريح الإمام الرضا(ع) هو النواة الأولى و الأساس للحرم الرضوي الطاهر، الذي كان على الدوام محلاً لاهتمام المحبين و الموالين، و بتبعمهم البنائون و المعمارين و الفنانين. و قد استوجبت قداسة و وظيفة هذا المكان الروحاني الديني ضرورة صيانة عمارته و الحفاظ عليها في أفضل حالة ممكنة من ناحية الموقع و الثبات و الزخارف و التزيينات و الفخامة و الجمال. و بناء عليه ازدادت مع مرور الزمان الأبنية الجانبية الملحقة بالحرم الشريف، و تمّ تعزيز بنائه و تقويته و كانت العناية البالغة بزخرفته و تزيينه بالمقدار الوافي و الكافي؛ وفقاً لمقتضيات و ظروف المكان و الزمان، ولكن يبدو أنّ مراعاة مكانة الحرم الشريف قد أخذت بعين الاعتبار بالدرجة الأولى، و كان لها الأولوية، و قد تجلّى ذلك في ارتفاع القبة المنورة لمقرّد الإمام الرضا(ع)، فكان بذلك تميّز الضريح المطهر وجمال إطلالته، و علوه و إشراقه بالنسبة لما يحيط به من أبنية.

و بات تميّز القبة و إطلالتها الفخمة أمراً ضرورياً مع البدء في تشييد أبنية أخرى مجاورة للحرم الشريف، و غدا ارتفاع بعضها أعلى من ارتفاع القبة الشريفة؛ من قبيل قبة مسجد جوهرشاد و أووينه، و قبة رواق دار السيادة، و بطبيعة الحال هذا أمر لا يلبق بمكانة الضريح المنور. و منذ تشييد القبة المزدوجة المرتفعة ذات الغطاءين فوق الروضة المنورة باتت هذه القبة رمزا لعمارة العتبة الرضوية المقدسة، و نقطة تحول كبيرة، و عنصراً معمارياً لفت إليه أنظار الموالين و قلوب المؤمنين الوالين، و ازداد يوماً بعد يوم بهاؤها و جلالها.

و للأسباب مجهولة بقبت مسألة المراحل التي مرّ بها بناء القبة المشرفة للحرم المطهر على الرغم من أهميته الفائقة أمراً غائباً في التاريخ المكتوب و المنقول للعتبة الرضوية المقدسة، و نحن نسعى في هذه المقالة إلى بيان مراحل بناء القبة، و التغييرات التي شهدتها عبر تعاقب الأيام و السنين، و سوف نبين كيفية و مسار وصول القبة الشّماء إلى بُنيتهما الحالية. **الكلمات الدلالية:** حرم الإمام الرضا(ع)، القبة الذهبية، العتبة الرضوية المقدسة.



* نشرت في آستان هنر، العدد ٢٢.

** خبير آثار، المدير العام الأسبق لمديرية التراث الثقافي و السياحة في محافظة خراسان الرضوية.

rajablabbaf@yahoo.com

١. خلاف المفردة، أي المؤلفة من سقّين، و هي في الحقيقة قبتان مدمجتان تعلو إحداهما الأخرى.

مقدمة: تطور عمارة القباب

وفقا لما تقتضيه طبيعة إيران و مناخها، و منذ قديم الأيام اعتمد البناؤون نوعين من التسقيف في العمارة؛ هما: التسقيف بالأخشاب، و التسقيف باستخدام الطاق أو القبو، و انتشر استخدام الطاق أكثر في إيران في العصر الإسلامي، و تعتبر القبة أكثر أنواع الطاق استخداما في هذا النوع من التسقيف.

وراج بشكل كبير منذ زمن الإمبراطورية الساسانية^١ تسقيف بعض الأبنية بالقباب فوق قاعدة مربعة، و استمر الأمر كذلك في العصر الإسلامي مع تطور و تكامل، و في النهاية تحول بناء القبة في العمارة إلى عنصر رمزي خاص. شهد التسقيف بالقباب و منذ بدايته تحولات و تغييرات كبيرة، عادة ما تمتلك القبة قاعدة دائرية الشكل، و إنّ تشييدها على أبنية مكعبة الشكل استلزم القيام بإجراءات فنية معمارية ضرورية للوصول تدريجيا من المكعب إلى الدائرة؛ و من أهمها تحويل قاعدة البناء من الشكل المربع إلى المثلث، و من ثم إلى ستة عشر ضلعا، و إلى دائرة في النهاية.

و يُحتمل أنّ هذه الحيلة المعمارية الإبداعية حدثت للمرة الأولى في القرن الثالث الميلادي، و بالتحديد في بناء معبد «بازه هور»^٢ و ذلك عبر وضع دعائم خشبية في الزوايا، و تكرر الأمر في عهد أردشير الأول^٣ في معبد نار «نياسر كاشان»^٤ باستخدام الحنية المقرنصة^٥ (اندرية غودار، و آخرون ١٣٦٥، ج١: ٥٩ و ٦؛ اندرية غودار، ١٣٦٩، هـ: ٨ تا ١١).

كان للأبنية التي شيّدت بهذا الشكل في الحقبة الساسانية تصميم مربع الشكل، و لكن في العهد الإسلامي بالإضافة إلى القاعات المربعة تمت إضافة القباب فوق الأبنية مع قاعدة مدورة و خمسة و مسدسة و ثمينة، و بعضها كان ذو عشرة أضلاع، و اثني عشر ضلعا، بل وحتى أنّ بعض قواعد القباب كان مستطيل الشكل، و إنّ تشييد القبة على قواعد مختلفة يتطلب حلولاً و إجراءات معمارية خاصة.

و هنا نؤكد على تلك المرحلة التي استمرت فيها القبة الساسانية فوق أبنية العهد الإسلامي، في هذه المرحلة كانت القبة تؤدي مهمة تسقيف الأبنية و القاعات مكعبة الشكل، بالاستعانة بالحنية الكروية، و لكن أصبحت الساق أو القاعدة الدائرية التي تستقر عليها القبة أكثر تكاملاً و تطوراً.

أوائل القباب المائلة من العهد الإسلامي؛ كقبة مقبرة الشاه إسماعيل الساماني في بخارى، و قبة مقبرة ارسلان جاذب، بُنيت على قاعدة مربعة الأضلاع، و هذه القاعدة مزينة في سطحها الداخلي بزخارف و تزيينات و فواصل (نوافذ)، و تزيينات أخرى من الطوب.

في أبنية الحقبة الإسلامية استخدمت أقبية الطوب لتشبيد الحنيات المقرنصة و المداخل، و في السطح الداخلي للحنية تجلت أجمل التزيينات و الزخارف الموجودة في القاعات المقببة (اندرية غودار، ١٣٦٩: ٩٠ و ٩١).

و باتت الأبنية أكثر اتساعاً و مساحة في العهد السلجوقي، و الأسقف أكثر ارتفاعاً، و بالتالي أصبحت الركائز أكثر سماكة، و راجت التصاميم المتعددة الأضلاع؛ بمقاييس و مساحات أكبر، من قبيل بهو مسجد نطنز^٦ المثلث الأضلاع (هوف، ١٣٧٦: ٤١٢).

و في تلك الحقبة زينت الجدران الداخلية للقاعات المقببة بالمقرنصات و النوافذ و الأقبية^٧ و الأقواس، للتحول إلى لوحات غاية في الروعة و البهاء، و كان يتم تشييد قاعدة القبة من الخارج وفق شكل مثلث الأضلاع؛ مركبة على قاعدة أخرى مربعة أو متعددة الأضلاع، و تكون عادة قليلة الارتفاع.

في تلك المرحلة كانت القباب تبنى فوق شبكة من الأقواس الخفيفة مشكلة من المقرنصات و المداخل و الحنيات (اندرية غودار، ١٣٦٩: ١٠٣ و ١٠٤).

و قد اتسمت هذه الأبنية عموماً بأنّه يمكن وصفها بالباطنية؛ بحيث نشاهد أكثر التزيينات و الزخارف على السطح الداخلي للجدران؛ حتى أنّ بعضها يبدو من الخارج و كأنها كتل من الزهور، و من أمثلتها مسجد قبة سنغان في منطقة خواف-إيران، و مقبرة محمد بن زيد في مرو (في تركمانستان).

و قد أدت حملات المغول في أوائل القرن السابع الهجري مباشرة إلى أفول الفنون و سقوطها، و منها فن العمارة، و على الرغم من ذلك استُئنفت عملية بناء القبب المفردة^٨ بناء على النمط السابق و أضيف إليها نوعان من القبب هما: «القبة ذات الجدارين»، و «القبة الداخلية»، و التي تستر داخل بناء مخروطي (ويلبر، ١٣٦٥: ٦٧).

شُيِّدت القبب المفردة فوق قاعات مكعبة الشكل أو ثمانية الأضلاع؛ حيث يمكن أن تتحول قاعدتها المثلثية إلى قاعدة ذات ١٦ ضلعا، و من ثم إلى الشكل الدائري لتحمل القبة فوقها، و هذا الأمر يتطلب البناء المتدرج لقاعدة القبة، و التقليل من سماكتها تدريجياً من الأسفل إلى الأعلى. و حتى أوائل القرن الثامن الهجري كانت الواجهة الخارجية للقبة بسيطة الشكل، و مبنية من الطوب، و للمرة الأولى جرى في العام ٧١٣ ق تزيين قبة السلطانية^٩ من الخارج بقطع من الطوب المغطاة بطبقة من التزجيج نيلي اللون (ويلبر، السابق: ٦٧ و ٦٨).

و في قباب العهد الإيلخاني كان هناك اهتمام بالفخامة و الحُسن في العمارة و عليه بدأ نمط القبب ذات السقفين (المزدوجة)، و استمر في العهد التيموري، و في هذا النوع من القبب بالإضافة إلى حماية السقف التحتي، و إلى الزخارف المعمارية الموجودة على السطح الداخلي لسقف القبة التحتية؛ فقد كان له جانب رمزي و إيحائي و جمالي أيضاً.

في منطقة البحر المتوسط بنيت القبب المرتفعة فوق الأبنية الكبيرة، و كانت ترتبط هذه القبب بالجانب المقدس من المبنى، و هذه الوظيفة للقبة ارتبطت بها في إيران منذ القرون الأولى للإسلام، و إنّ العناصر الجمالية استمدت

١. جمع قبة.

٢. القبو (أو العقد القنطري) هو هيكل تسقيفي معماري مكور من الداخل... أول ما استخدم القبو كان في الهياكل التي تحت الأرض (سرايب) لئلا يطلق الناس كلمة قبو على السرايب من باب التغليب. (ويكيبيديا) ٣. ٢٢٦ - ٦٥١ م.

٤. معبد يعود إلى العصر الساساني، و يقع بالقرب من مدينة مشهد اليوم.

٥. ملك ساساني، ١٨٠-٢٤٢ م.

٦. تقع مدينة نياسر إلى الغرب من مدينة كاشان على مسافة ٢٠ كم.

٧. أو حاملة القبة، قوس في العمارة تكون على زوايا جدران البناء الأربع لحمل القبة.

٨. مدينة إيرانية تبعد حوالي ٧٠ كم عن مدينة كاشان.

٩. جمع قبو.

١٠. خلاف المزدوجة أي التي تضم سقفا واحدا فقط.

١١. مقبرة السلطان الإيلخاني محمد أولجايتو، شُيِّد ما بين سنة ١٣٠٢ و ١٣١٢ في مدينة سلطانية الأثرية، الواقعة في مقاطعة زنجان شمال غرب إيران.

و قبل العام ٨٠٤ كان ذلك البناء يستخدم كمدرسة، وعندما مات «محمد سلطان» حفيد تيمور في العام ٨٠٦ دفن في ذلك البناء، وحول الأمير «أولوغ بيك» المكان بعد موت تيمور إلى مدفن للأسرة الحاكمة.

ويعتبر «كور الأمير» الذي صار فيما بعد قبر الشاهرخ ابن تيمور؛ يعتبر عملاً فنياً مميزاً و رمزاً للإبداع و فن المعماريين في العهد التيموري و الذين كان أكثرهم من الإيرانيين، و قد بدأ في ذلك الزمان تقريباً بناء القباب المرتفعة في شرق إيران، وتم تشييد مسجد جوهرشاد في العام ٨٢١ق، و في هذه المسجد أنشأ سوار القبّة الإسطواني على قاعدة مكعبة الشكل، و في العام ٨٤٣ ق. شيّد قباب مدرسة «دودر» و مدرسة بريداز، و بنيت مقبرة لأمر شاه ملك في العام ٨٥٥ق، والتي حولت فيما بعد إلى مسجد سُمي «مسجد الشاه» و في تلك الفترة أيضاً بنيت قبّة مرتفعة كسقف لمدرسة «فروزشاهي» المجاورة لمقبرة الشيخ أحمد جام (اندرية غودار، السابق: ١٢٧٠ تا ١٢٩٦؛ شيلابلر، ١٣٨١: ٩٧ و ٩٦).

و في العصر الصفوي راج في إيران نمط بناء القبب المزدوجة ذات القاعدة الأسطوانية، و تحولت القبب إلى الشكل البصلي (اندرية غودار، السابق ١٣١)



مراحل بناء قبّة الحرم الرضوي المطهر

يعود البناء الأولي لضريح الإمام الرضا(ع) إلى عشر سنوات قبل شهادته، و نقصد بذلك القبّة التي أمر المأمون العباسي بنائها فوق قبر أبيه هارون في العام ١٩٣ق. (مولوي و آخرون، ١٣٨٨: ٣٣؛ سيدي، ١٣٧٨: ١٣؛ إمام، ١٣٤٨: ١١٧؛ لباف خانيكي، ١٣٧٨: ٣٤؛ عطاردي، ١٣٧١: ٥٨؛ إلى ٦٠) و قد ذهب البعض للقول بأن تشييد النواة الأولى لبناء الحرم الشريف يعود إلى ١١٠٠ سنة قبل شهادة الإمام الرضا(ع)، مستندين إلى رواية عن «جابر بن عبدالله الأنصاري»، ونقلها «الشيخ الصدوق» التي نسبت بناء المكان إلى الإسكندر المقدوني (موسوي المغاني، ١٣٤١: ٤٣؛ مؤتمن، ١٣٥٥: ٣٨؛ كاويانيان، ١٣٥٤: نقلا عن منتخب التواريخ)، و هذا طبعاً بعيد عن الواقع، و كان ذلك البناء المشيد بأمر من المأمون و اشتهر باسم بناء «الهارونية» عبارة عن بناء مربع الشكل، و قبر الخليفة في مركزه، و كانت سماكة جدارنه حوالي المترين، و سقفه متناغم مع الطراز المعماري في ذلك الزمان.

بعد شهادة الإمام علي بن موسى الرضا(ع) أمر المأمون بدفنه عليه السلام إلى جوار قبر هارون (الطبري، ١٣٥٢، ج١٣: ٥٦٧٥)

و قال البعض بأن الإمام دفن في القاعة الكبرى لقصر «حميدبن قحطبة» في قرية سناباد (إمام، السابق: ٤٠٤). و يقع بناء الهارونية في الجزء المركزي من قصر حميدبن قحطبة، و هذا البناء عبارة عن قاعة كبيرة و مرتفعة الجدران تعلوها قبّة. و ما زالت هذه القاعة

الاهتمام بارتفاع القبّة و شموخها و إطلالتها، و كان ارتفاع سقف القبّة في العهد الإيلخاني يؤمن الارتفاع المطلوب لها، و هذا الأمر كان سبباً في فقدان التناسب و التناغم بين ارتفاع السقف و بين الأبعاد الداخلية للبناء. (ويلبر، السابق: ٧٠) حتى أواخر القرن الثامن الهجري كانت هيكلية البناء من الداخل و الخارج مكشوفة و بتعبير آخر كان البناء سافراً، ولكن منذ أوائل العهد التيموري بات المعماريون الإيرانيون يضيفون إلى قاعدة القبّة المربعة أو المثلثة سواراً أسطوانياً الشكل يسمى بالفارسية «گريو» و يبنى فوقه قبّة أخرى، و هذا الإبداع المعماري كان يحقق مجموعة من الأهداف: أولاً تصير القبّة مرتفعة فخمة و متميزة فيما يحيط بها من النسيج العمراني، ثانياً: يغطي السوار الأسطواني (قاعدة القبّة الفوقية) والقبّة العليا (الفوقية) معايب البناء، ثالثاً: تمثل الساق والقبّة العليا الأرضية المناسبة للإبداع و التوسع في الزخارف و التزيينات حسبما يريد المعمار. (اندرية غودار، ١٣٦٩: ١١٢ و ١١٣؛ ويلبر، السابق: ٧١؛ هوف، السابق: ٤١٣) الأضرحة المبنية في مقبرة «شاه زنده»^١ بالقرب من سمرقند كضريح «بي بي زينب» و «شيرين سيكا» والتي شيّدت في العام ٧٨٧ ق، كانت من جملة الأبنية ذات القبّة المزدوجة (ذات سقفين) و المزودة أي القبّة بسوار أسطواني مرتفع كقاعدة لها، و بعد ذلك وفي الاعوام ما بين ٨٠١ و ٨٠٦ ق تمّ أيضاً تشييد مسجد «بي بي شبنم» في سمرقند بذات النمط السابق (اندرية غودار، ١٣٦٩: ١٢٧ و ١٢٨). و بعد موت تيمورلنك في العام ٨٠٨ ق دفن في بناء ذي قبّة مرتفعة تعرف اليوم بـ «كور تيمور» بالقرب من سمرقند،

١. ضريح الصحابي قثم بن العباس بن عبدالمطلب و يعرف في أوزبكستان بشاه زنده، مقبرة كبيرة تقع في الجزء الشمالي الشرقي من سمرقند، و تضم أضرحة و مباني شعائرية أخرى.
٢. تقع في بلدة تربت جام، في محافظة خراسان الرضوية في إيران.

الطوب الجمالية، و كانت قبة البناء قليلة الارتفاع نسبياً وذات سقفين، و ضمت قاعدة القبة و فوق كل مدخل روشن بارتفاع ٢,٨٣ متر.

و اعتبر الأستاذ بيرنيا أن مقبرة الأمير إسماعيل الساماني و مقبرة أرسلان جاذب من أبنية أواخر نمط العمارة في خراسان و هو قريب من النمط الرازي و يتصف بذات مزاياه وخصائصه (بيرنيا، السابق: ١٦٢ إلى ١٧٣) و البعض يعتقد أن النواة العمرانية الأولية للحرم الرضوي الشريف تشبه النواة العمرانية الأولية لمدفن «أرسلان جاذب» و عن هذا التشابه يقول المرحوم علي أكبر فياض: «كلا البناءان شيدياً في نفس الفترة الزمنية تقريباً، و يمكن أن يكون كل واحد منهما شارحاً للآخر، و بالنتيجة يمكن معرفة التصميم العام و الهندسة المعمارية الأولية للعتبة الرضوية المقدسة التي اختفت بسبب التوسعة و التغييرات الكثيرة بالنظر إلى مدفن أرسلان جاذب». (سيدي، ١٣٧٨؛ السابق: ١٩، نقلاً عن فياض)

و ما يعزز فرضية أن الحرم الرضوي الشريف قد تمت إعادة بنائه في العهد الغزنوي ذلك التقارب و التشابه في أبعاد الروضة الرضوية المنورة و بين الفضاء الداخلي لمقبرة «أرسلان جاذب» و نمط العمارة الواحد في المكانين.

و من جملة ذلك التشابه أن أبعاد الحرم الشريف في داخل البناء هي ١٠/٩٠ × ١٠/٤٠ متر، و أبعاد مقبرة أرسلان جاذب ١٠/٢٠ × ١٠/٣٣ متر، و يبلغ ارتفاع بناء مقبرة أرسلان جاذب من داخل البناء ١٦/٩٠ متراً، و ارتفاع بناء الحرم الشريف من الداخل حتى نهاية السقف ١٧/٨ متراً، و ربما يعود الاختلاف هنا في الارتفاع إلى إعادة تخطيط أرضية مقبرة

مع القبة ماثلة إلى يومنا هذا (عام زادة، ١٣٩٠: ١١١) و نحن نجزم بعدم صحة هذه الفرضية، لأنه من غير المنطقي في ذلك العصر أن يُدفن هارون داخل قاعة أو حتى داخل أي نقطة من قصر حميد بن قحطبة، بل يحكم العقل السليم بأن هارون دفن إلى جوار القصر، و ربما داخل سوره، و من ثم بنيت هناك المقبرة المعروفة بالهارونية.

القبة الأولى

لا تتوفر معلومات حول كيفية بناء القبة الأولى أو ما يُسمى الهارونية ولا عن أبعادها، ولكن بالنظر إلى كيفية تموضع ضريح الإمام (ع) يمكن الافتراض أن موقع البناء الأول -بغض النظر عن التغييرات الأخيرة - هو نفس الموقع الحالي للروضة المنورة، و بناء على أقوال أكثر المؤرخين و الباحثين (اقتباساً على ما يبدو من ابن الأثير) فقد قام «ناصر الدولة سبكتكين» الذي حكم بين ٣٦٦ إلى ٣٨٧ ق، بتخريب حرم الإمام الرضا (ع) الذي كان معروفاً باسم «المشهد»، ولم يتبق من جدرانها سوى مقدار ضئيل يقارب المترين، (مولوي و آخرون، السابق: ٣٣؛ اعتماداً على السلطنة، السابق: ٣٣٨؛ موسى مغاني، السابق: ٤٣).

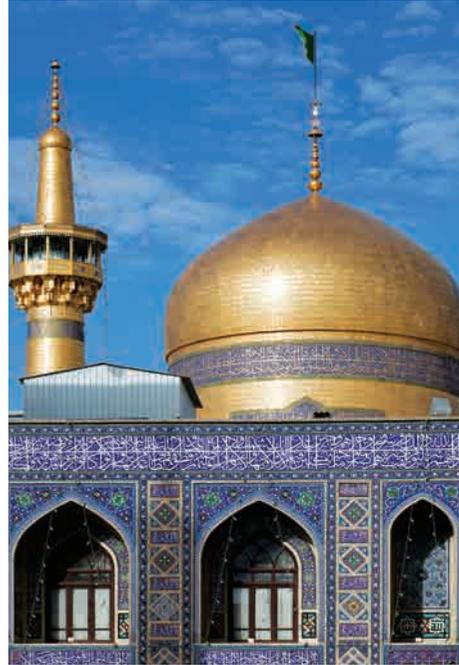
و البعض يشكك بهذا الخبر مستندين إلى أدلة معينة (سيدي، ١٣٨٧: ١٨) ولكن هناك حقيقة لا يمكن إنكارها، و قد نقلها البيهقي، وهي أن حرم الإمام الرضا (ع) قد أعيد بناؤه أو ترميمه مرة في عهد السامانيين و مرة ثانية في عهد حكومة مسعود الغزنوي و ذلك على يد «بويكر شهرد» و «سوري بن معتز». (سيدي، ١٣٧٨: ١٨؛ سيدي، ١٣٩٤: ١٢٨ و ١٢٩؛ البيهقي، ١٣٥٦: ٥٣١ و ٥٣٢؛ البيهقي، ١٣٨٨، ج ١: ٤٠٦؛ قصابيان، السابق: ١١٩ تا ١٢١) و قد نسب الرواندي بوضوح بناء قبة «الرضا رضي الله عنه» إلى سوري بن معتز (الرواندي، ١٣٣٣: ٩٤)

وسواء تم تشييد البناء أو ترميمه في زمن السامانيين أو في العهد القاجاري فقد استخدم في بنائه نمط عمارة ذلك العصر المستخدم في بناء مقبرة الأمير إسماعيل الساماني (بُنيت ٣٣٢ ق) في بخارى، و مقبرة أرسلان جاذب (بُنيت حوالي ٤٠٠ ق). (رك: مولوي و آخرون: ٣٤)

و مثل هذه الأبنية تعدّ طليعة بناء المقابر و المدافن في العصر الإسلامي في إيران، من قبيل بناء «سنغ بست» الذي يحتوي على واجهة ثلاثية من الداخل و الخارج، و يحوز القسم الداخلي على الحصة الأكبر من التزيينات و الزخارف.

و منها أعمال طوب الطابوق البديعة المدمجة تحت القباب، في حين أن المنظر الخارجي لقبة «سنغ بست» و قاعدتها بسيط للغاية و يخلو من أية تزيينات (هيلن برند، ١٣٨٠: ٢٩٠؛ بيرنيا، ١٣٨٧: ١٧٣).

و يعتبر هذا البناء استمراراً لأبنية الأطواق الرباعية (بالفارسية: تشهار طاق) للعهد الساساني، و تميزها عنها في استخدام مواد البناء، و التزيين بالكتيبات و بأعمال



كما أن ابن بطوطة تحدث في أواسط القرن الثامن الهجري حول رونق وبهاء الحرم الرضوي الشريف (ابن بطوطة، ١٣٦١: ٤٤١) وربما كان هذا هو السبب الذي جعل الحكام المغول وعموم الناس يتعاملون بشكل إيجابي مع زخارف الحرم وتزييناته.

و مع وصول شاهرخ التيموري إلى سدة الحكم، ونقله العاصمة إلى هرات، فإن مجال التغييرات في نوع خاص من العمارة والذي كان قد بدأ في سمرقند وصل إلى مشهد ونواحي شرق خراسان. وفي هذه المرحلة كان المعمارون والبنائون في العصر التيموري يضيفون غلafa من الزخارف والتزيينات على السطح الخارجي للأبنية، وهي تزيينات متميزة عن الطوب الأساس للبناء الذي كان يُعطى بالتزيينات الجديدة وكانت القباب العالية ذات القواعد الأسطوانية تضيء الفخامة والجمال الأخاذ على الأبنية لاسيما المدافن منها، بالإضافة إلى وظيفتها في تغطية القبّة التحتيّة وحمايتها.

البناء الحالي للقبّة الشريفية

في الأعوام ما بين ٨١٧ إلى ٨٢١ ق، وفي فترة ولاية بايسنغر ميرزا على مشهد؛ معينا من شاهرخ التيموري، شهد الحرم الشريف تشييد مجموعة من الأبنية الجديدة الفخمة ومنها مسجد جوهرشاد، ورواق دار السيادة، ودار الحفاظ (كلمبك ١٣٧٤: ٤٦٢-٤٥٩؛ سيدي ١٣٨٦: ٥١-٤٢)، و بني عدد من القباب في مجموعة الحرم المطهر، وهي: قبّة مسجد جوهر شاد بارتفاع ٣٩/٦٨ مترا، و منارنا المسجد بارتفاع ٣٩/٥٠ مترا، و الإيوان القبلي للمسجد بارتفاع ٢٧ مترا، و قبّة دار السيادة بارتفاع ٢٣ مترا، و كل هذا غطي على قبّة الحرم الشريف المصنوعة من الطوب والبالغ ارتفاعها ١٩ مترا، و حرمها من التميز و الفخامة اللاتين بها و يحتمل أن المعمار الأستاذ قوام الدين الشيرازي قد فكر في كيفية إعادة الفخامة والإطلالة البهيمة لقبّة الحرم الشريف، والتي تمثل النواة الأهم، و النقطة الأبرز في مجموعة أبنية العبّنة الرضوية المقدسة.

فيادر الأستاذ الشيرازي إلى تشييد قبّة فخمة بارتفاع ٣١/٢٠ فوق ساق أسطوانية الشكل و متناسبة مع حجم البناء، و ذلك فوق كتف القاعدة المربعة لبناء العصر الغزنوي، و قد تمّ هذا الأمر بالاستعانة بوضع أعمدة داعمة متدرجة في الفضاء الداخلي للقبّة، و على القاعدة المثمنة لقبّة العصر الغزنوي، و في المسافة الفاصلة بين السقفين القديم و الجديد. و إن تشييد هذه القبّة المرتفعة و الفخمة قد فتح الطريق في المستقبل لبناء مزيد من الأبداعات والإضافات العمرانية الجديدة والجميلة إلى جوار أوابين الصحن العتيق، و هذا ما حصل ببناء قباب مدرسة بريزاد، و مدرسة «دودر» و مقبرة الشيخ البهائي و قبّة رواق وردی خان، التي سطعت جميعها جمالا و فخامة في مجموعة عمارة الحرم الشريف.

واستمرت أعمال البناء و التوسعة في المجموعة العمرانية للحرم

أرسلان، و تبلغ سماكة جدران مقبر أرسلان حوالي ٣/٥ متر و السماكة الأولية لجدران الحرم الشريف هي في هذه الحدود.

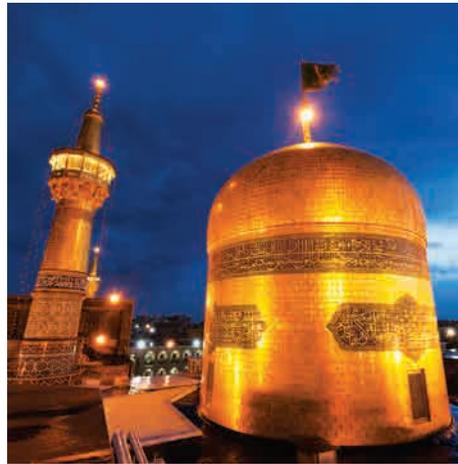
و بالطبع فإن سماكة الجدران اليوم في نهاية الإيوانات الرباعية الحالية للحرم الشريف هي أقل مما ذكر سابقا، و سبب ذلك عمليات التوسعة في الساحات الداخلية للحرم، و التي جرت على مرحلتين تضمنتا تقليل سماكة الجدران في الجهات الأربع، و في المجموع نتج عن عملية تقليل السماكة هذه إضافة ٥٤ مترا مربعا للمساحة الداخلية للحرم (العلاقات العامة ١٣٦٤: ٣٩ و ٤٠).

و لقد حصل هذا الأمر بشكل فني و احترافي و تمّ تأمين قوة المبني وثبات السقف و القبّة عبر إضافة أقواس متساوية فوق ركائز الزوايا، على كل حال لقد كان التشابه بين البناء الأولي للحرم الرضوي الشريف و بين مبنى مقبرة أرسلان جاذب كبيرا للغاية لدرجة أن البعض ذهب للقول أن بناء واحدا قام بتشبيد البنائين. (ديشيدي، ١٣٦٦: ٤٥)

و يبدو أن الحرم الشريف بالهيئة و الهيكلية التي كان عليها في العهد الغزنوي مع مسجد «بالا سر» أو «مقبرة أبو الحسن العراقي» كان موجودا في العهد السلجوقي، و ربما كان هنالك تغييرات طفيفة؛ من المحتمل أنها اقتصرت على الزخارف و التزيينات المعمارية.

و لا يستقيم ما كتبه البعض من أن الحرم الرضوي المطهر قد تعرض للتخريب أثناء حملات المغول وأنه في العام ٧٠٠ ق قام «غازان خان» أو بعده «السلطان محمد أولجاتيو» ببناء قبّة مرتفعة فوقه. (ديشيدي، السابق: ٤٦؛ اعتماد السلطنة، السابق: ٣٤٠ و ٣٤١؛ مؤمن، السابق، ٦١)

لأنه حتى العهد التيموري (حوالي العام ٨٢١ ق) لم يطرأ أي تغيير ذا شأن على عمارة الحرم الرضوي الشريف، و ليس فقط أن المغول لم يهاجموا مشهد بل إن جنكيزخان قد حذر جيشه من الاقتراب من هذه المدينة و منحها صفة «دار الأمان». (خنجي، ١٣٨١: ٣٤٩) و لم يتعرض الحرم الشريف إلى أيّة أضرار، و لم تكن هناك حاجة لترميمه أو إعادة بنائه.



وقد أدى هذا الهجوم الذي سمي «اضطراب آخر الزمان»، و«عاشوراء الثانية»، أدى إلى خسائر كبيرة في قبّة الحرم الشريف. و بعد مرور عدة أشهر على هذه الواقعة بدأت أعمال الترميم و الصيانة للقبّة الشريفة واستمرت العملية لسنوات، و في الكتيبة التي تشرح أعمال «نير الدولة» إشارة إلى التذهيب الثاني للقبّة، و الذي تم بهدف ترميم و تجديد السبائك النحاسية المطلية بالذهب. (كاويانيان، السابق: ٨٨٢؛ نعمتي، السابق: ١١ و١٠)

في أوائل عقد السبعينات تمّ أخذ قرار بتحديث و تجديد الشكل الخارجي للقبّة، على أن يقوم بهذا العمل عمال و حرفيون من باكستان، و بعد تهيئة المقدمات اللازمة بدأ العمل في صيانة القبّة و تجديدها في شهر حزيران/ يونيو ١٩٧٨، و لأنّ العمال الباكستانيين لم يحسنوا العمل، ولم يقوموا به بالشكل المناسب، تمّ إيكال عملية الصيانة و التجديد إلى متخصص بطلاء المعادن من طهران، وهو السيد «جعفر نوروزخان».

ومن أجل تنفيذ المهمة قام بتقييم كلّ واحدة من قطع الطوب المذهبة، و من ثمّ فصلها عن القبّة، و بعد صب أرضية من الخرسانة المسلحة على السقف المبني من الطوب، بسماكة ٢٠ سنتي مترا، أعاد نصب قطع الطوب المطلية بالذهب فوق القبّة و بشكل مترص، و قد انتهت عملية نصب القطع النحاسية المذهبة فوق سطح القبّة الشريفة في حزيران/ يونيو ١٩٨٠ (نعمتي، السابق: ١١).

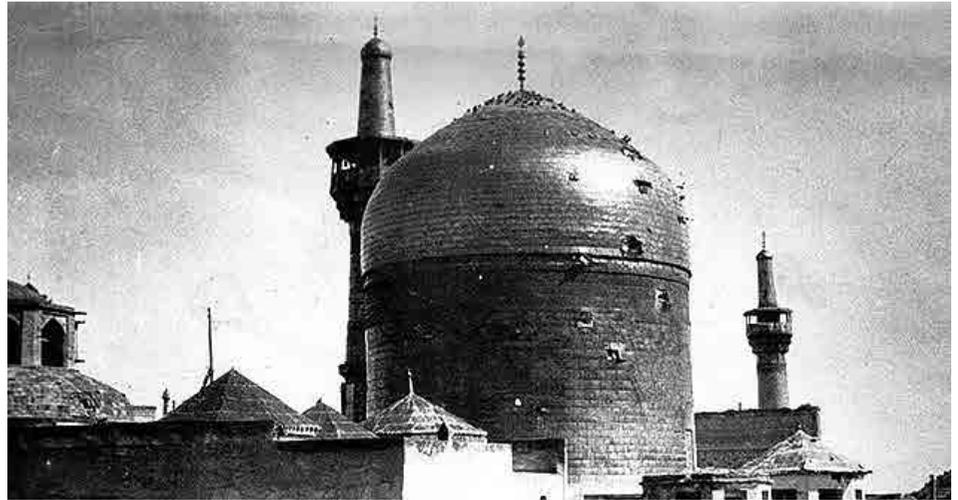
على الرغم من أنّ الأبنية المرتفعة من مجمعات تجارية و فنادق و التي بنيت بالقرب من الحرم الشريف قد أدت إلى الحد من جمالية و بهاء القبّة الذهبية الشريفة، و حجت شيئا من إطلالتها المشعة؛ إلا أنّ قبّة الحرم الرضوي الشريف المتألقة بالنور ما زالت تجذب إليها القلوب الوالهة قبل الأنظار و ما زالت تبعث في نفس كلّ من يراها طمأنينة و سكونية عزّ نظيرها.

حتى أواخر العهد التيموري، وكذا كان الحال في العهد الصفوي مع تداوم البناء و التشييد فيه (مولوي وآخرون، السابق: ٣٨).

و حتى زمن الشاه طهماسب الصفوي (حكم بين ٩٣٠ و ٩٨٤ ق) و بالتحديد حتى العام ٩٤٠ ق كان السطح الخارجي للقبّة مغطى بالقاشاني الأخضر (نعمتي ١٣٩١: ٥٠ نقلا عن أميني).

و تنفيذاً لأداء نذر و جب عليه أنفق الشاه طهماسب ٦٣ مئاً من الذهب (١٨١ كيلوغرام) على تذهيب القبّة المنورة، كما قدم ١٧ مئاً من الذهب (٥١ كيلو غرام) لصناعة العمود المنصوب أعلى القبّة، و تمت عملية تذهيب القبّة باستخدام سبائك من النحاس مغلقة بأوراق ذهبية رقيقة، و كان ذلك أسلوباً جديداً و إبداعاً لم يسبق له نظير في العالم الإسلامي (نعمتي، السابق: ٥٠؛ إلى ٧؛ كاويانيان، السابق: ٥٧) و في العام ١٠١٠ ق عندما زار الشاه عباس الأول الصفوي مدينة مشهد و الحرم الشريف قادمًا من أصفهان مشيا على الأقدام، أمر أثناء هذه الزيارة بتذهيب قاعدة القبّة المنورة. و وفقا للكتيبة المنقوشة على قاعدة قبّة الحرم الرضوي الشريف بخط «عليرضا العباسي» فإنّ فنّان التذهيب في العتبة «كمال الدين محمود اليزدي» أنهى عملية التذهيب في العام ١٠١٦ (نعمتي، السابق: ٨؛ مولوي و آخرون، السابق: ٣٩؛ كاويانيان، السابق: ٥٧) و في العام ١٠٨٤ ق أدّى زلزال ضرب المنطقة إلى تشقق القبّة الشريفة، و تم ترميمها بعد عامين، و قد سُجّلت هذه الحادثة في الكتيبة المنقوشة على قاعدة القبّة (نعمتي، السابق: ٩).

و يبدو أنّه لم يطرأ تغيير هام على بناء القبّة منذ عهد سليمان الصفوي و حتى العام ١٣٣٠ ق في ذلك العام دخل لواء القوزاق التابعين لروسيا و المدافعين عن محمد علي شاه قاجار و المعارضين للثورة في إيران (بالفارسية: مشروطيت) و قصفوا الحرم الشريف حيث تجمع الناس، و حطموا نوافذ القبّة الذهبية، و خربوا الكثير من السبائك المغلقة للقبّة و المطلية بالذهب، و قصفوا القبّة بالمدفعية فأصابها ١٨ قذيفة، مما أدى إلى حصول ثقوب كثيرة فيها.



المصادر

- ابن بطوطة (١٩٨٢)، رحلة ابن بطوطة، ج١، الترجمة إلى الفارسية محمد علي موحد، طهران، دار نشر العلوم والثقافة.
- اعتماد السلطنة، محمد حسن خان (١٩٨٣)، مطلع الشمس، ج١ و٢، طهران: نشر فرهنگسرا.
- إمام، سيد محمد كاظم (١٩٦٩) مشهد، طوس، مشهد: مكتبة ملك الوطنية.
- بليز وشيلا وجوناثان بلوم (٢٠٠٢)، الفن والعمارة الإسلاميين، ترجمة الدكتور يعقوب أجند، طهران: نشر سمت.
- سيدي، مهدي (٢٠١٥) «الإمام الرضا والحرم وأول الموقوفات عليه برواية أبو الفضل البيهقي»، فصلية باج، السنة الرابعة، ع١.
- شولتز، برتولد (١٩٨٠)، تاريخ إيران في القرون الأولى للإسلام، ج١، ترجمة إلى الفارسية: جواد فلاطوري، طهران: دار نشر العلوم والثقافة.
- غيدار، اندريه وغيلداغيدار وماكسيم سيرف (١٩٨٦)، آثار إيران، ترجمة إلى الفارسية: أبو الحسن سرويقد مقدم، ج٢، مشهد: مجمع البحوث الإسلامية في العتبة الرضوية المقدسة.
- كاويانيان، احتشام (١٩٩٧٥) شمس الشموس، مشهد: العتبة الرضوية المقدسة.
- كلمباك، ليزا، ودونالد ويلبر (١٩٩٥)، العمارة التيمورية في إيران وتوران، ترجمة كرامت الله أفسر ومحمد يوسف كياني، طهران: المؤسسة الوطنية للتراث الثقافي.
- مولوي عبد الحميد، محمد تقي مصطفوي، إبراهيم شكورزادة (٢٠٠٩) «حركة تطور العمارة والتوسعة في العتبة الرضوية المقدسة» ترجمة رجبعلي يحيائي، مجلة «الوقف ميراث خالد»، السنة ١٧، ع ٦٥.
- مؤمن، علي (١٩٧٦)، تاريخ العتبة الرضوية، مشهد: العتبة الرضوية المقدسة.
- نعمتي، بهزاد (٢٠١٢) «تذهيب قبة حرم الإمام الرضا(ع)»، فصلية «آستان هنر»، ع ٢٤ و ٣، مشهد: العتبة الرضوية المقدسة.
- بيرنيا، محمد كريم، (١٩٩١) «القبة في العمارة الإيرانية»، مجلة «مدثر» الفصلية، ع ٢٠، طهران: منظمة التراث الثقافي.
- البيهقي، أبو الفضل (٢٠٠٩)، تاريخ البيهقي، مقدمة وتحقيق: الدكتور محمد جعفر ياحقي، ومهدي سيدي، طهران: نشر سخن.
- خنجي، فضل الله (٢٠٠٥)، مهمان نامه بخارى، بإشراف منوتشهر ستوده، طهران، دار نشر العلوم والثقافية.
- ديشيدي، رضا (١٩٨٦) «مع زيارة العتبة الرضوية المقدسة»، (فصلنامه هنر) فصلية الفن، ع ١٣.
- الراوندي، محمد بن علي (١٣٣٣) راحة الصدور وآية السرور، تحقيق محمد إقبال، طهران: دار نشر أمير كبير.
- سيدي، مهدي (٢٠٠٧)، مسجد وموقوفات جواهرشاد، طهران: مؤسسة بحوث وتنمية ثقافة الوقف.
- سيدي، مهدي (٢٠٠٩) تاريخ مدينة مشهد، طهران: جامي للنشر.
- الشيخ الصدوق، أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين القمي (١٩٩٣)، عيون أخبار الرضا(ع)، ج١، طهران: دار الكتب الإسلامية.
- الطبري، محمد بن جرير (١٩٨٥) تاريخ الطبري، ترجمة أبو القاسم باينده، ج١٣، طهران، دار أساطير للنشر.
- عالم زادة، بزرگ، (٢٠١٠) الموسوعة الرضوية، طهران: شاهد للنشر.
- عطاردي، عزيز الله (١٩٩٢) تاريخ العتبة الرضوية المقدسة، ج١، طهران: منشور عطاردي.
- غيدار، أندريه (١٩٩٠) الطاقات الإيرانية، ترجمة كرامت الله أفسر، طهران: منشورات فرهنگسرا.
- قصابيان، محمد رضا (١٩٩٨)، تاريخ مشهد، مشهد: دار نشر أنصار.
- كياني، محمد يوسف (٢٠١٦)، العمارة الإيرانية (العهد الإسلامي)، طهران: سمت.
- لباف خانيكي، رجبعلي (١٩٩٩)، مشهد التراث الثقافي لخراسان، طهران: منظمة التراث الثقافي الوطنية.
- ويلبر، دونالد (١٩٨٦)، العمارة الإسلامية الإيرانية في العهد الإيلخاني، ترجمة إلى الفارسية: عبدالله فرياد، طهران: دار العلوم والثقافة للنشر.
- هوف، ديتريش (١٩٩٧) «القباب في العمارة الإسلامية»، الترجمة إلى الفارسية: كرامت الله أفسر ومحمد كياني معماري، طهران: سمت.
- هيلين برند، روبرت (٢٠٠١)، العمارة الإسلامية، الترجمة إلى الفارسية: الدكتور باقر آية الله زادة الشيرازي، طهران: نشر روزنة.